



نِسَاءُ صُنْعِ التَّارِيخِ

أ. أناهير السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

<https://anaheedblogger.blogspot.com/>

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
 - ✓ هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليها الأستاذة حفظها الله.
 - ✓ الكمال لله - عز وجل -، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحب ويرضى.

عناصر الدرس:

مقدمة حول:

نماذج لنساء صنعن التاريخ

(1) آسية بنت مزاحم

- {إِذْ قَالَتْ رَبِّ} سؤالها باسم الرب دليل على أنها تعلم الملك المربي، الملك المدبر هو الذي تفزع إليه الخلائق وتسأله وترجوه.

- {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} دلالة ظاهرة على قوة الإيمان باليوم الآخر وبلقاء الله وبوعده.

- {وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} النجاة مبدأ من مبادئ صناعة التاريخ لأنفسنا.

(2) أمنا خديجة بنت خويلد-رضي الله عنها-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أسأل الله- سبحانه وتعالى- أن يجعله صباحًا مباركًا وأن ينفعنا بهذه الساعات وأن يكون اجتماعنا اجتماعًا مباركًا، وأن نكون من أولئك القوم الذين قيل لهم: قوموا مغفورًا لكم، نسأله- سبحانه وتعالى- وكلنا رجاء ويقين أنه لا يخيب الداعين السائلين، نسأله- سبحانه وتعالى- أن يقبلنا مع المقبولين وأن يهدينا مع من هدى وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا.

ومن أعظم ما نردّد في كتاب الله الفاتحة، فنحن نقول ونحن في حالة من الانكسار والذل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم نعقب على هذا الطلب: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فنحن نريد أن نسير في هذه الحياة مهتدين إلى صراط ربنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ فأنت عبادة الاستهداء العظيمة المبنية على شعورك أنك في ظلمة وأنت تحتاج إلى نور، وأنت في سفر وتحتاج إلى دليل، وأنت تائه في الحياة وعابر سبيل تحتاج إلى من يرشدك إلى الطريق السوي السليم.

طلبك للهداية وقيامك بعبادة الاستهداء ييسر عليك فهم قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾⁽¹⁾ ييسر عليك فهم أي موطن في القرآن توصف الحياة بأنها ظلمة وأنت تطلب النور أو توصف الحياة أنها سفر وأنت تطلب الطريق. وعبادة الاستهداء من العبادات المهمة جدًا التي لا تنفك عنا أبداً، طوال الوقت نشعر أننا بحاجة إلى أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم.

ومما يساعدنا ويساندا في طلب الهداية للصراط المستقيم أن نقلب صفحات التاريخ فنجد ما نطلبه بعد طلب الهداية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فنحن نريد أن نسير مثلما سار من أنعم الله عليهم بالهداية فنقول له: أنت تهدي عبادك إلى الصراط المستقيم من أوصافك أن تهدي العباد إلى الصراط المستقيم فاهديني فيمن هديت.

(1) [سورة الأحزاب: 43]

من هم المهتدين؟ ما صفاتهم؟ ما أحوالهم؟

فإذا عبدت الله بعبادة الاستهداء، فنور طريقك بقراءة التاريخ من أجل أن ترى نماذج لمن هدى الله.

➤ نحن نعبد الله بعبادة الاستهداء حتى نحقق قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

➤ ونقرأ التاريخ من أجل أن نحقق: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

تعرف أن الله أنعم على خاصة من الخلق، تعرف أن خير الخلق بعد الأنبياء أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم-، فعندما تسمع أسماء هؤلاء أصحاب الأجداد يقع في قلبك مع تعظيمهم والشعور بنعمة الله عليهم الاقتداء بهم!

ونحن نقلب صفحات التاريخ لنرى كيف صنع أولئك القوم تاريخهم، كيف صنعوا هم تاريخهم لكي نصنع نحن تاريخنا.

لقاؤنا بعنوان:

نساء صنعن التاريخ

نحن نقرأ في التاريخ من أجل أن نرتبط بقوم زكّاهم الله وزكّاهم النبي- صلى الله عليه وسلم-، وهؤلاء القوم نذكرهم إجمالاً كل مرة ونحن نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ كل مرة نعيد ذكرهم لكن على وجه الإجمال، والإجمال ينفع في تقرير أصول العقائد، لكن التفصيل هو الذي يثير المشاعر.

تفصيل الأخبار عن القوم الذين مضوا تجعلنا وقتما نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يكون في ذهننا أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم، فما نذكر أبو بكر أو عمر- رضي الله عنهما- أو غيرهم من الصحابة إلا وقلوبنا قد امتلأت ترضياً. والأعظم أننا حين نسمع أسماء أمهاتنا الذين تربطنا بهم مشاعر الأمومة! أمي أم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها-، أمي أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-.

هل (أمنا) هذه أخذت بُعدها في مشاعرنا ومشاعر أبنائنا الذين نربهم؟ إذا شعر أبنائك بعنايتك بأهلك الحسية- التي من الدم-؛ سيرثون مباشرة العناية ولو بعد حين، فمثل هذه الطريقة نورثهم العناية بأمهاتنا أمهات المؤمنين، نورثهم العناية بهم فيرتبطوا ببيت النبوة بشرف، كم فرطنا في هذا الشرف العظيم! (أن تتسبب لبيت النبوة).

✚ تقلبنا لصفحات التاريخ وقراءتنا لحال القوم الذين صنعوا أمجادهم لنرى كيف صنعوا

تاريخهم، فنصنع نحن تاريخنا.

لا تنس أنك ستكتب تاريخك وستقرؤه أنت بين يدي الله، ستقرؤه أنت حين تلقى الله، قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابٌ يُرِيتُهُ

نَفْسٌ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾⁽¹⁾.

﴿هنالك﴾ : يعني يوم القيامة.

﴿تبلى﴾ : تفحص.

﴿ما أسلفت﴾ : ما قدمت، ما سبق لها.

تُختبر كل نفس يوم القيامة ما قدمته من أعمال فتقرأ كل نفس تاريخها الذي كتبه!

فأنت ستقلب صفحات التاريخ من أجل أن تقرأ عن القوم الذين نثني عليهم وقت قراءتنا للفتحة وطلبنا من ربنا أن
اهدنا الصراط المستقيم كما أنعمت على أولئك القوم الذين أنعمت عليهم، نقرأ عن الذين أنعم الله عليهم كيف كانت
أحوالهم، كيف كان تاريخهم، نحن نكتب تاريخنا بقدر المستطاع مقارب لتاريخهم، من جهة أخرى نفهم المسألة فنقول: قراءتك
للتاريخ من أجل أن تكتب تاريخك الذي يخصك الذي هو عبارة عن ردود فعلك على الأقدار التي تعيشها.

كيف ستكتب تاريخك؟ من أين ستصنع لك مجدك؟ أولاً: مجدك الذي ستصنعه مجد في السماء وليس عند أهل الأرض،
أنت تريد أن تكتب لنفسك تاريخاً من أجل أن تجد أمام عينيك شيء يشرفك أن تقرأه كتاريخ لك حين تُختبر كل نفس ما
قدمت.

أنت هنا في الدنيا تعمل العمل ولا تستطيع أن تتصور أبعاده مقبول غير مقبول فيه ثغرات صدق كذب نفاق
رياء... يأتي يوم القيامة هذا العمل فتختبره وترى تاريخك الذي مضى ماذا فعلت به، فأكثر شيء يهملك الآن أن هنالك-
وليس هنا- حين تختبر كل نفس ما أسلفت تكون قد أحسنت فيما أسلفت! ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾.

(1) [سورة يونس: 30]

✚ تاريخك ومجدك الذي ستفعله هو رد فعلك على الأقدار التي تعيشها.

رد فعلك على القدر، كما في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ في أي شيء يجبك، ما وصفها؟ ما حالها؟ لابد أن تعرف أنها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا أَنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لماذا تُخبر بهذا الخبر؟

حتى تكون ردة فعلك متزنة: ﴿لَكِي لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾⁽¹⁾ تعرف تكتب مجدها كما ينبغي، ويكون ردود فعلها على الأقدار التي تجري عليها كما ينبغي، ولا تجدها تضارب ولا تحارب ولا تقاتل إنما تسير بهدوء، ولا تتشبث وتبعد وتيأس، ولا تراحم وتضارب، إنما تسعى في أمر الدنيا وتسارع وتسابق في أمر الآخرة. مطلوب منك أن تكتب تاريخك، وهذا تاريخك هو رد فعلك على الأقدار التي تجري عليك، ورد فعلك على الأقدار التي تجري عليك تُكتب لك أو عليك ثم تختبره ثم تلقى الله تغلبه ثم تلقى الله.

✚ حتى نصل إلى نتيجة تساعدنا على أن تكون ردود أفعالنا على تاريخنا كما ينبغي، علينا أن نقرأ في تاريخ من صنعوا لأنفسهم مجداً وأثنى الله عليهم وأثنى عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

آية عظيمة في أواخر آل عمران تصف لنا قوم سيحسنون في صناعة تاريخهم نتيجة نضج ألبابهم، نتيجة نضج تفكيرهم، نتيجة نضج عقولهم!

بدأ هذا السياق بوصف الحقيقة: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ آيات لمن؟ من الذي ينتفع بآيات تدله دلالات؟ ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ما أوصافهم؟

(1) [سورة الحديد: 22، 23]

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وقلوبهم مشغلة بأي شيء؟ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ قلوبهم مشغلة بالتفكير، ألسنتهم طليقة بالذكر وقلوبهم مشغلة بالتفكير، لكن أي تفكير؟

يتفكرون في هذه الآيات البينات الظاهرات، والأمور التي تجدد عليهم، فيخرجوا بنتيجة لأن عقولهم ناضجة، فذكرى

الدار الآخرة لا يخلو من عقولهم من أجل ذلك ما أن ينظروا إلى السماوات والأرض ينظروا إلى ما يظهر لهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا

مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ كل هذه الحكمة التي تشهد بها السماوات والأرض تنطق بالحق فنقول: لا بد أن تلقى الله، وكما وضع

كل شيء في مكانه سيضع كل امرء في مكانه، ويمكن أن يستوي المؤمن والكافر والبر والفاجر، بل سيجعل الله كلاً في مكانه،

وقد تكرر في كتاب الله آيات مثل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفَجَّارِ﴾⁽¹⁾ هل ممكن أن يجعل المجرمين مثل المسلمين! هل ممكن أن يجعل المتقين مثل الكفار! هل ممكن أن يجعل البر مثل

الفاجر! لا يمكن، لأنك نظرت إلى السماوات والأرض ورأيت كل شيء يوضع في مكانه وتظهر عليه آثار عزة الله وحكمته،

فمستحيل أن برًا سساوي فاجرًا.

إذا يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ينتقلون إلى ذكر الدار الآخرة، ومن أعظم ما

يصلح ردود فعل الإنسان هو بقاء ذكر الدار الآخرة على باله.

فغياب ذكر الدار الآخرة يجعل العبد لا يفكر إلا تحت قاعدة هواه، هواه الذي يحكمه، فيقولون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا

بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثم يقرؤون أن الدنيا لا تساوي شيئاً بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ

مهما كان متمتعاً في الدنيا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (192) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴿ في تفسير أهل

العلم المنادي هو القرآن، يعني في حياة الصحابة كان المنادي هو النبي-صلى الله عليه وسلم-وفي حياتنا نحن المنادي هو

القرآن.

﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ صدقنا وتحركت مشاعرنا وأتت هذه الأخبار علينا فقبلناها وانفعلنا معها ﴿رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾⁽¹⁾ كل تفكيرهم في ذكرى الدار الآخرة، فذكرى الدار الآخرة ملأت قلوبهم، تفكيرهم في الدلائل موجودة أمام أعينهم، فنقلتهم هذه الدلائل إلى ذكر الدار الآخرة .

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فماذا رد عليهم ربهم؟ ﴿فَاسْتَجَابَ

لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾⁽²⁾ .

فإذا قرأت عن رجال صنعوا التاريخ، ستقرأ عن نساء صنعن التاريخ، المشكلة ليست رجل وامرأة، المشكلة من أنت من جهة الإيمان؛ ولذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ يعني الذكر والأنثى بعضهم من بعض لكن المهم ماذا تفعل، فلا تقس الصلاح إلا بالإيمان.

بمعنى من كان مؤمناً كان عمل الخير منه عملاً صالحاً، من لم يكن مؤمناً كان عمل الخير منه استجابة لدافع فطري أو لشهوة نفسية.

الله لما خلقنا في الدنيا وهبنا مواهب عظيمة لو انتفعنا منها لاستفدنا، من أعظم المواهب التي وهبناها فطرنا السليمة، الفطر السليمة التي تحب الخير وتكره الشر، تحب العدل وتكره الظلم؛ ولذلك الصحابي جبير ابن مطعم كان مسلماً إلى أن نزلت سورة النحل وأتى فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال وهو مُسلم: الآن اطمئن قلبي! لأن أتت أوامر الشريعة موافقة تماماً للفطرة التي تتحرك في النفس.

ثم أن الله خلق الخلق على طباع، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ))⁽³⁾ .

(1) [سورة آل عمران: 192، 193]

(2) [سورة آل عمران: 194، 195]

(3) المستدرك على الصحيحين للحاكم، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

في حديث الأشج قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ)). قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهَمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟" قَالَ: ((بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا)). قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"⁽¹⁾.

فمن كان يتخلق بخلق من شرق أو غرب فهذا سيكون مما وهبه الله من فطرة بقيت موجودة آثارها ومن طبع يطبع الله -عز وجل- عليه الخلق لكن ليس خيراً إلا إذا قبل رسالة الرسول؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وإذا استجاب للرسول بقي في أحسن تقويم، إذا لم يستجب يقول عنه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ معنى ذلك أن الذي يصنع التاريخ ذكراً كان أم أنثى المطلوب منه أمرين: (قاعدة ونتيجة):

القاعدة: أن يكون مؤمناً.

النتيجة: أن يعمل عملاً صالحاً.

في آية (آل عمران) يؤمن بالله واليوم الآخر، وقلبه وعقله مشغول بما أظهره الله من أدلة، فكل يوم يزيد إيماناً ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فلا تتصور أن التفكير عبادة تخص من كان في خارج الإسلام ودخل الإسلام، التفكير كما أنه سبب لإدخال الإنسان من الكفر إلى الإيمان كذلك هو من أهم أسباب زيادة الإيمان.

لذلك في القرآن يكرر عليك كثيراً وصف هؤلاء القوم العقلاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ وكل هؤلاء القوم صفتهم أنهم يتفكرون.

فإذا انشغل قلبك بالتفكير في الدلائل التي ترشدك إلى لقاء الله، وآمنت وصدقت وحركت مشاعرك تجاه لقاء الله، كل عمل يقع منك وأنت تفكر في لقاء الله يكون عمل خير، كل عمل خير تعمله وأنت تفكر في لقاء الله فهو عمل صالح.

(1) رواه أبو داود في سننه، قال الشيخ الألباني: حسن دون ذكر الرجلين.

ولذلك من أهم أسباب مضاعفة الأجور قوة استحضار اليوم الآخر قوة الإيمان باليوم الآخر تكون سبب لمضاعفتك، والدليل على ذلك حديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي نسمعه بتكرار الذي وصف فيه حال الصحابة وحالنا.

وصف لنا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حال الصحابة وحالنا فقال: ((**فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**))⁽¹⁾ الكمية عظيمة والتنوعية ذهب، والصحابي يحفن حفنة من شعير بقدر يده أو نصفها (مدّ أحدهم ولا نصيفه) يتصدق هو وتتصدق أنت بمثل جبل أحد الذي من نوع الذهب ما تبلغ مد أحد الصحابة ولا نصفه، والسبب الإيمان، قوة القلب في تصور اليوم الآخر، قوة الشعور أن هذا ميراث الله، المال مال الله، استعداد به للقائه.

فلذلك لما سمعت عن أولي الألباب الذين في سورة (آل عمران) سمعت كيف حالهم مع الدار الآخرة وحضورها، فمن استحضر الدار الآخرة وتصورها استطاع أن يجعل عمله الصالح مضاعف بسبب ما معه من إيمان وقوة يضاعف أعمال الخلق بسبب إيمانهم، القضية في إيمانك وعملك الصالح الذي يترتب عليه.

مجدك وتاريخك الذي تكتبه وتريد أن تقرأه حين تلقى الله معتمد اعتمادًا كليًا على قوة إيمانك وقوة استحضارك للدار الآخرة.

فالأعمال التي تعملها يحركك إليها إيمانك، ستكون مضاعفة نافعة تثقل ميزانك، والأدلة كثيرة على ذلك.

نساء صنعن التاريخ

سنتكلم على نساء لهنّ ألباب صنعن التاريخ، هذا التاريخ يخصّهم ثم أصبح تاريخ يخصّ العالم! وإذا بدأنا هذا الكلام نقف على هذا الحديث الذي رواه الترمذي وهو حديث صحيح:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: ((**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**))⁽²⁾.

(1) أخرجه الترمذي (3878) واللفظ له، وأحمد (12414) وصححه الألباني.

(2) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي حديث البخاري ومسلم: ((كَمَلِ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))⁽¹⁾.

فمثل هذه النصوص يجب أن تكون ظاهرة أمامنا وأمام أبنائنا الذين نريهم لكيلا تأتيهم تلك المشاعر التي تقول: نحن في فقر إلى القدوات! نحن لسنا بفقر إلى القدوات، نحن في فقر من جهة إبرازنا للقدوات، فقر في بيان حال القوم الذين أنعم الله عليهم ممن سبقنا، فالكبير لا يسمع عن هؤلاء فما بالك بالصغير، الكبير ليس في حال حرص أن يقرأ سير هؤلاء ويعتني بهم ويجعلهم أمام عينيه فما بالك بالصغير الذي يتربى!

لن نستطيع أن نمر على كل سير أولئك العظماء، لكن سنختار منهم ونختار من بين سيرهم ما يتيسر...

نبدأ بأسية زوجة فرعون

نذكر تزكية الله لها بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾ ونقف أمامها في عدة نقاط:

○ نبدأ أولاً بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ والمثل في القرآن يتضمن ثلاث معانٍ:

(1) أصل معنى كلمة (مثل): وصف، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾⁽³⁾ أي: وصف الجنة التي وعد

المتقون، من هذا المعنى الأساسي خرجت معانٍ أخرى

(2) المعنى الثاني المتداول الذي تجده في القرآن، معنى كلمة (مثل) بمعنى: الشبيه والنظير، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي

اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾⁽⁴⁾.

(1) أخرجه البخاري (3769) واللفظ له، ومسلم (2431)

(2) [سورة النحر: 11]

(3) [سورة محمد: 15]

(4) [سورة البقرة: 17]

(3) بمعنى النموذج، وهو معنى الآية التي ذكرناها، امرأة فرعون نموذج للذين آمنوا. كأنه يقال لنا: التفتوا أيها المؤمنون إلى هذا النموذج واجعلوه نموذجًا أمام أعينكم، وإذا قلت (نموذجًا) فسأضعه أمام عيني وأسير كما سار وأحتذي به.

○ نناقش سيرة من سير العظيمات، وبدأنا بمن بدأ بها الرسول-صلى الله عليه وسلم-، فبعد أن ذكر مريم ابنة عمران، ذكر آسية زوجة فرعون، والله-عز وجل-ضرب آسية مثلاً في القرآن.

الله-عز وجل-وضع أمام أعينكم أيها المؤمنون نموذجًا عليكم أن تتفحصوه، ويتبين لكم جيدًا وتسيروا على ما سار، وأنت تتفحص حالها اقرأ سيرتها في القرآن، ومن الآيات التي نتفحص فيها حال آسية هذه الآية، لو وقفنا أمامها كما ينبغي سيكون أمامي منهج أسير عليه.

ثم أسمع ماذا قال الله-عز وجل-في وصفها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ . . ﴾ وهذا دليل على أنها كانت في حال مع أهل الشرك وأهل الكفر وأهل الطغيان، فرعون رمز للطغيان وهي امرأته وعاشت هذه الحالة التي انتقلت فيها من الكفر إلى الإيمان، وهي تحت سلطته.

﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهذا دليل على فرعها وعلى لجوئها.

﴿رَبِّ﴾ واختيارها لهذا الاسم يدل على أن العبد إذا علم أن الملك المدبر الرب المربي بيده كل شيء سيكون فرعه مباشرة إليه.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فسؤالها باسم (الرب) دليل على أنها تعلم الملك المربي الملك المدبر هو الذي تفرع إليه الخلائق وتسأله وترجوه، وسؤالها يوافق سؤال كل الأنبياء فكل الأنبياء كان سؤالهم لله باسم (الرب).

فمن علم معنى اسم الرب لم يتكاسل أو يتوانى أو يثبطه الشيطان في أن يفرع في كل حال إليه، لأنك تقول: يا رب يا مدبر لكل شأن يا مسبب الأسباب يا صارفًا للشر يا ميسرًا للخير، يا

رب يا من وصفه أنه ملك ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ *ملك الناس ﴿فهو الرب الذي يملك وهو

الرب الذي يدبر وهو الرب الذي يلطف، وهو الرب الذي يجبر، وهو الرب الذي يفرج

فكونك تجعله صمدك وكونك تجعله مفزعك وأمانك، فقد أحسنت إلى نفسك.

فالمقصد أن حال الكمل ممن يصنعون تاريخهم أهم علامة في تاريخهم الجيد هو أنهم إلى ربهم فزعين.

﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ماذا قالت؟ ﴿رَبِّ﴾ نداء لله، الفزع إليه، اللجوء إليه، الانكفاف عن الخلق، القناعة بأن لا أحد ينفعك

ولو اجتمع أهل الأرض ولا أحد يستطيع أن يضرّك ولو اجتمع أهل الأرض، إنما ينفعك ويحلب لك النفع الله؛ ولهذا النفع أسباب وهو الذي يسبب الأسباب، وهو الذي يجري نفعه في الأسباب، وهو الذي يدفع عنك الضر، وهو الذي يسبب لك أسباب نفع الضر، وهو الذي يسخر لك الأشخاص الذين يدفعون عنك الضر، فبدلاً من أن تقف بين يدي العبيد قف بين يدي ربهم الحكيم العليم البر الكريم الحميد المجيد!

ثم ماذا طلبت؟ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ تدل هذه الجملة على السرعة وعلى قوة اللجوء والفزع، سنخرج

منها بنتائج:

منها: الإيمان باليوم الآخر وبلقاء الله وبوعده ظاهر مسيطر على المشاعر.

وهذا وجوده أكثر سبب يحرك العبد للشوق إلى الله، وضعفه وفقده أكبر سبب يجعل الإنسان يمشي متثاقلاً وهو سائر إلى الله، لا بد أن نحرك في نفوسنا حقائق الإيمان باليوم الآخر.

✚ حقائق الإيمان باليوم الآخر تخرج الإنسان من الغفلة

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾⁽¹⁾ هؤلاء القوم الذين لا

يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها، أهم أثر لهذه الصفات الغفلة عن يوم القيامة، الغفلة عن لقاء الله، الغفلة عن سؤاله.

تصور هذه المرأة العظيمة التي هي في الضنك العظيم وتحت سلطة أظفى رجل في الأرض تتصور الدار الآخرة إيماناً جازماً! يكون عندها من اليقين أن ربها يسمعها، يكون عندها من اليقين أن هناك جنة، وأن هناك بيوت فيها، وأن هناك طلب ورجاء أن يبني الله -عز وجل- لها بيت في الجنة، فتفرع إليه في وصف هذا العذاب وتطلب بيت في الجنة! إنه اليقين بالدار الآخرة، وعدم الرضى ولا القبول بالدنيا، وعدم الغفلة عن الآيات التي هي حولك.

🌟 هذه المرأة نموذج في تاريخها ليس فقط لأنها تحت أعظم طاغية في التاريخ، بل لأن إيمانها بالدار

الآخرة وشعورها بذلك كان حاملاً لها بالانفصال عن الدنيا وتوجه الفكر إلى الآخرة.

وقد ورد في الثناء على الأنبياء كما في سورة ص أنه -سبحانه وتعالى- قد أخلصهم بخالصة وهي ذكرى الدار، يعني لهم خاصية تميزهم وهي أن ذكرى الدار الآخرة لا تنفك عن عقولهم، يرون من الآخرة ما لا يراه الخلق ولا يشاركون الناس في رؤية الدنيا، لا يرونها بهيجة كما يرونها، سبحان الله!⁽²⁾

نفس الحقائق لكن كل واحد يراها بشكل مختلف، فالذي ضعف إيمانه يرى زهرة الحياة الدنيا بهيجة، والذي قوي إيمانه

لا يرى الدنيا كما يراها أهل الدنيا، إنما نظرهم إلى الآخرة، كحال الأنبياء ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ﴾⁽³⁾.

صحيح هم أنبياء ولهم خاصية لكن هذه المرأة تربت على العز والترف وعاشت ومعها عامل السلطة، وعامل السلطة من العوامل الخطيرة التي تفسد النفوس، وهذه الأشياء التي عاشتها كمحوبات أو مرغوبات لما خالط الإيمان بشاشة القلب ووقعت الحقائق في مكانها انتقلت المشاعر، فبعد أن كان هذا بهيجاً ويتنافس عليه الخلق، أصبح لا قيمة له!

(1) [سورة يونس: 7]

(2) لو تفكرت في أمر خارج عن هذا ورأيت أن الله -عز وجل- خلق المخلوقات بصرهم مختلف قوة وضعفاً، ثم درجة الألوان التي يرونها المخلوقات مختلفة، مثلاً الإنسان يرى ألوان الطيف السبعة فلذلك يرى هذا أحمر وهذا أخضر يرى هذه الألوان، لكن الحيوانات مثلاً الكلب والحمار لا يرون الأشياء إلا بين السواد والبياض فقط، ومثل الديك كما في الاختبارات يرى فوق ما يرى الإنسان؛ ولذلك ربما هذا يفسر أن الديك يصيح عند رؤية الملائكة.

(3) [سورة ص: 46]

إذا قيل لك إن ما هو أعلى في السماء وعند الرب الكريم ويكون ما هو أعلى في مجاورته ولا يجاوره إلا من صلح من الخلق صلح لأن يجاوره، فكم ستتحرك النفس؟!

ستتحرك على قدر تصديقها وشعورها وصفاءها، فهذا الذي حصل لامرأة فرعون، حقائق دخلت لامست بشاشة القلب والشعور فنقلت الملذات والمحاب والمرادات نقلتها من هنا الدنية إلى هناك العلي.

ثم هي امرأة وعندها بيت والمرأة أكثر ما يهتمها بيت، عندها بيت وعندها سلطة، فتركت كل هذا المحسوس وراء ظهرها وطلبت في جوار الله ما يجبر لها هذا الذي ستتكره وراءها!

أنت ماذا تريد؟ هل تريد بيتًا في قلوب الخلق أو تريد بيتًا في مجاورة الرب؟!

الجواب السهل اليسير: (بيتًا في مجاورة الرب) لكن هذا يحتاج إلى مسافة مجد! يعني كلما مالت نفسك هنا والتفتت إلى الخلق تردّها وترغبها وتقول: هناك جنات النعيم، هناك حيث الراحة التامة، حيث الصفاء...

آسية: امرأة آمنت صدّقت، كتبت مجّدًا بدعائها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾

﴿عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ معناه تؤمن بلقاء الله إيمانًا حقيقيًا، عندها من القناعة أن بيتها في الدنيا ليس إلا تراب، وأن الطمع ليس في الدنيا ولا في أماكنها ولا ذات شغف في البيت الذي في الدنيا.

قد يقال: نريد بيتًا عند الله لكن هذا لا يمنعنا من التكاثر والتفاخر ببيوتنا وتصبح في لحظة غاية اهتماماتنا!

لا أقصد الإهمال، أقصد الشغف بالدنيا، إذا كنت شغوفًا بالدنيا معناه أن مشاعرك التي تملكها استُعِلَّتْ، مشاعرك تجاه الآخرة ضعيفة بل تكاد أن تكون ميتة! لذلك لا يحصل هذ الشعور (ابن لي عندك بيتًا في الجنة).

لكن حين يدخل الإيمان فيخالط بشاشة القلب فيشغلها عن الدنيا، فإذا شغلك الإيمان والتعلق بالرحمن عن كل شيء فذاك الوقت سيكون حقيقة الشوق إلى الله وستفعل بكلام الله في وصف الجنة ونعيمها وتتعض بمن يعظك.

لكن ما حالنا مع الدنيا؟ هل نكرها ولا نعيشها أم ماذا نفعل؟

كأنك مسافر، لو نظرنا إلى إخواننا المغتربين سواء من بلادنا يسافرون إلى الشرق والغرب للدراسة أو من بلاد المسلمين ويأتون، هل يصلون إلى حال الترف في بيوتهم؟ لا أبدًا، على أقل حد، والسبب أنهم يقولون: هذه ليست بلدنا عندما نذهب إلى بلدنا نفعل.

هناك عند الله والجنة اغرس فيها، الجنة تحتاج منك أعمال من أجل أن تصل إليها، الدنيا بُلْعَةٌ مَنْعَصَةٌ، بُلْعَةٌ ستبلغ بها إلى الآخرة، وهي مَنْعَصَةٌ لكيلا يأتي يوم تطمئن لها أبدًا، فعایشها على أنها بُلْعَةٌ مَنْعَصَةٌ.

ثم أنك ستعيش وتفعل نفس الأفعال لكن كل الفارق أنه ليس لديك مشاعر أمام تلك الأشياء، بل مشاعرك: ﴿لَكِي لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾⁽¹⁾ فأنت إنسان هادئ مستقر ناضج مَتَرَن.

مقدار الاتزان على أساس تصورك للحقائق، بمعنى لو تصورت أن الدنيا زائلة، وضاع منك خاتم ذهب هل ستنزل منك دمعة من أجله؟ هل ستحزن؟ لا، بل ستفعل ما تستطيعه وتبحث، ولو ما وجدته انتهى الأمر، تذكر نفسك وتقول لها:

نفسي التي تملك الأشياء ذاهبة فكيف تبكي على شيء إذا ذهب

وتكون صادقًا في هذا ولا تكذب على الله، وعندما تجد نفسك تحزن عليها تقول لنفسك: عيب عليك الذي أعطاك أخذ منك وهذا ليس بشيء، نعم الله تترا وعطاياه لا تنتهي، والطمع ليس في ذلك، والحسرة والآلام ماذا ستفعل.

إذا من الفوائد في قوله: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قوة إيمانها بلقاء الله واستحضارها للجنة والعناية بها وأيضًا فهمنا شعورها تجاه بيت الدنيا وكونه تراب مع اجتماع المثلث فيه لكنها باعتها من أجل الآخرة.

في كثير من الأمور في الدنيا تحبها وتشغلك عن باب الله، فتذكر أن امرأة فرعون تركت بيتها الذي هو مصدر عزها، تركت بيتها الذي من التراب وطلبت من ربها بيتًا في الجنة، فأنت اترك كل شيء متصل بالتراب وراءك واطلب عوضه من الله في الجنة، وهكذا سير حياتك كل ما لا تجده في الدنيا وهو من حاجاتك اطلبه من الله في جناته سيجبرك في الدنيا على فقده ويعوضك خيرًا منه عندما تلقاه.

(1) [سورة الحديد: 23]

لابد أن تبيع شيئاً من الدنيا وتشترى بذلك الآخرة، ومن رحمة الله وكرمه ولطفه أننا لا نبيع الدنيا كلها خصوصاً في حال مثل حالنا، المتروك شيء بسيط جداً في مقابل النعيم والعطاء، والله -عز وجل- يبتلي الخلق على حسب إيمانهم ولا يبتليك إلا وأنت تستطيع بما معك من إيمان أن تترك هذا وراءك وتتقدم.

اعلم أن الله يختبرك بما يناسبك، فلا يأتي موقف وقرار صناعة تاريخك في ترك أمر من أمور الدنيا إلا وهو يناسبك وتستطيع تركه.

لأزلنا نتكلم عن هذه المرأة العظيمة التي ضربها الله مثلاً ونموذجاً:

○ طلبها الثاني هو: ﴿وَبَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لاحظ التقديم والتأخير، طلبها

للمجاورة قبل طلبها للنجاة، وهذا دليل على تعلقها بالآخرة، غاية الفهم أن الدنيا تنقضي وأن النجاة لابد أن يكون من الدنيا والخروج منها سيكون سيكون، لكن الآن همها ليس مجرد الخروج، بل همها النجاة.

النجاة مبدأ من مبادئ صناعة التاريخ لأنفسنا:

ما مفهوم النجاة عندك؟ يعني هل تشعر أنك محتاج إلى أن تفكر في النجاة؟ النجاة من من؟

بماذا بدأت في الدعاء وبماذا انتهت؟

﴿وَبَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ يعني يعتبر القريب ﴿وَبَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يعتبروا أبعد.

النجاة هذه في الدنيا، نحن الآن حولنا أعداء لا نشعر بهم، قبل ما تذهب إلى الفتن والمعاصي، لنبدأ من القريب جداً لنا ((اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي))⁽¹⁾ النجاة نجاة من الهوى والشيطان الذي يركب هوايا، النجاة النجاة! النجاة النجاة من أولادنا، القريب قد يؤثر عليك أكثر من البعيد، ويضغط علينا، فمن أجل إرضائه وإسكاته ومن أجل صرف غضبه ومن أجل كل هذه التفاصيل التي نتكلم عنها عادة نزل أقدامنا!

فعندما تشعر أنك ضعيف لا يمكنك ردّ عداوتهم ولا تعرف من أي باب تأتي عداوتهم، فتصور أولاً نفسك وحالك، اطلب من الله أن ينجيك من شر نفسك، هذا إيماناً منك أن نفسك مليئة بالشور، مليئة بالطباع، وفيها مؤثرات وفيها هوى، ويمكنها من هوى فتتزلق ويمكنها من مال فتسرف، ويمكنها من قدرة على اتخاذ قرار فتتحرف.

(1) سنن الترمذي، قال: هذا حديث غريب.

ثم يأتي بعد هذا مباشرة القرابين أموالنا أولادنا عدو لنا، فالمطلوب الحذر منهم، ليس بمعاداتهم، فقبل أن تكلموا أهل الأرض ناجوا رب السماء، اطلب الله أن ينجيك من نفسك، واطلب الله أن ينجيك من شرهم، استهدي الله في كل لحظة ووقت تعاملهم، نجني من هؤلاء الذين هم بمثابة الأعداء عندما أشعر تجاههم من الحب والتعلق وطلب الرضا ما يجعلهم أعداء بالنسبة لي! ما الحل؟

مثلما فعلت هذه المرأة الفاضلة، ناجت الله بطلب النجاة، فلا تظن نفسك قادرًا على دفع فتنهم ولا الابتعاد عنهم، هم عدوك وهم تحت مسؤوليتك وأنت لا تستطيع أن تحدد نقطة عداوتهم، فما لك إلا أن تكون امرأة فرعون نموذج أمام عينيك. فرعون كان كافرًا والحمد لله أولادنا نسأل الله أن يثبتهم ويرزقهم زيادة الإيمان وأزواجنا ومجتمعنا بفضل الله من أهل الإيمان نسأل الله أن يزيدهم إيمانًا وتقوى ويقين إلا أن مع ذلك هم أعداؤنا، عدا خفي، ما الطريق؟ مناجاة من يملك شأنهم وشأني أن ينجيني منهم وينجيهم مني، فلا تنسَ مع طلب الهداية والتوفيق أن تطلب النجاة منهم.

يخبرنا الله -عز وجل- في كتابه أن من الأبناء من هم عدو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾⁽¹⁾ وإذا كانوا عدوا فاطلب النجاة، لكن إذا طلبت النجاة اطلبها طلب الفقير الذي يشعر بأن هؤلاء الأعداء أحباب في نفس الوقت، يا رب نجني من آثار ضرهم مع بقاء سلامة حبيهم، فمن ضرهم علينا شدة التعلق بهم، من ضرهم علينا ضعف التوكل في لحظات بسببهم.

هم أعدائنا لأنهم يشوشون علينا راحة بالنا بالثقة بالله، ولا أحد ينجيك إلا من في السماء، وهو الحكيم العليم الكريم يدخل في قلوبهم الإيمان في نفس الوقت؛ لذلك اجعل امرأة فرعون نموذجًا ظاهرًا أمام عينيك.

كما نعيد ونكرر ونشكر الله على أنهم أبناؤنا وعلى الفطرة وعلى دينهم ولا زال الخير الكثير فيهم مهما كان.

﴿وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سنعتبر هذه المسافة الأبعد، المجتمع الذي قد ضعف إيمانه، كصورة عامة لكل مجتمعات بلاد المسلمين ضعف إيمانهم وقل يقينهم وزاد طمعهم في الدنيا وزاد تفاخرهم وتكاثرهم، فتصور أن لك زميل تداوم معه ثمانية ساعات في اليوم وهو من أهل التكاثر والتفاخر والأسواق وأنت ليست لك علاقة بهذا كله ولكن طوال الدوام وهو يحكي لك عن الأسواق والمطاعم والدنيا... إلخ! فيكونوا شر علينا مع أنهم فيهم خير، لكن الأمراض القلبية معدية، الذي يتلى بحب الدنيا يعدي الشخص الذي لا يحب الدنيا، والذي في قلبه حسد يعدي صافي القلب، والذي في قلبه علو يعدي الذي ليس في قلبه

(1) [سورة التغابن: 14]

علو، والشاهد على ذلك حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَيْسِ))⁽¹⁾ حامل المسك ماذا يحصل لو صاحبتة؟ لابد أن يصل لك منه شيء، وناfix الكير؟ حتى لو ما اقتربت منه لابد أن يأتيك من وسخه شيء.

أصحابك الذين يصاحبونك وهم أندادك هؤلاء أكثر صعوبة وخطرًا من الناس البعيدين، فهم مجبرون أن يكونوا معنا مثل زميل العمل، الجار... هؤلاء يؤثرون على اتخاذك للقرار.

ولذلك قالت: ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ هذه صورة من القريين شديدي القرب ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المحيط الذي يحيط بي، وفي كل الأحوال نريد أن نصل إلى نتيجة واحدة وهي النجاة.

لن تكون نجاتنا إلا بسؤاله ورجائه، نتعرض لأحوال غاية في الخطورة، نتعرض لشهوات تكون قد تمكنت في قلوبنا أو تكون حاجات أساسية فينا، فما ينجينا من آثار هذه الحاجات إلا الله، فعلينا بعبادة الدعاء والمناجاة.

لكن اعلم أن الدار الآخرة هي ما تعني به، وهذا لا يمنع من دعائك للدنيا، لكن الأكثر اهتمامًا وعناية الدار الآخرة، وانظر إلى هذا النموذج كل تفكيرها وهي امرأة ذات ملك وذات سلطان وفي ترف... تركت كل هذا وراءها واعتنت ببيت في الجنة عند الله يجبر قلبها عن الدنيا وما فيها والنجاة من الأعداء القريين بالسلطة والأعداء الأكثر بعدًا لهم سلطة، هذا النموذج يجعلك تكتب مجدك بوضوح، كل ما يتصل بالتراب فهو تراب، كل هذه الدنيا في النهاية ستأتي اللحظة التي لا يكون لها قيمة⁽²⁾.

هذه الحقائق والدروس ماذا تساوي؟ متى ستكتشف الحقيقة؟ عندما يفوت الأوان؟!

يجب أن تنقذ نفسك وتوجه مشاعرك إلى أن يهملك وتضمن الأمور على قدرها، وتعرف بماذا تفرح وماذا ترجو ومن ماذا تخاف؟

يعيبك أن تخاف على الدنيا!

(1) أخرجه البخاري (5534) واللفظ له، ومسلم (2628)

(2) الدول التي كان لها عملة وسقطت الدولة، ماذا ستكون أوراق العملة؟ لا شيء، بل أحيانًا المسألة لا تتحمل أن تسقط الدولة، مثل الجماعة السعودية الذين كانوا في اليابان وقت الزلزال، حصلت عليهم أحداث كثيرة خرجوا من المنطقة خمس ساعات لكي يلحقوا الطائرة في منطقة أخرى بعيد عن الزلزال، صاحب سيارة الأجرة يقول للمرأة: على قدر البنزين الموجود سأوصلك، أين ما يقف بنا انتهى! قالت له أعطيك مال زيادة، قال ليس هناك محطات مفتوحة، وهي تحمل كل ما عندها من أموال لكن تعتبر أوراق لا تساوي شيئًا، والدولة لم تسقط سياسيًا.

وكما حصل في عام 1427 توفي أحد الأمراء في جنوب المملكة الظاهر خرج عن الطريق ثم تاه وانقطع به الاتصال وتوفي في مكانه! السيارة مليئة بالأموال وهو من عائلة لهم شرف وملك، ومع ذلك عندما تنوه أو تبعد أو تنقطع، أوراقك لا تفيدك وليست بشيء ولا سيارتك ولا طائرته ولا أي شيء.

يعيبك أن يكون منتهى رجاؤك في كل يوم الدنيا!

عيبك أن يمر عليك اليوم واليومين وكل رجاؤك أن تذهب وتعود وتركب وتلتقي... إلخ

عيبك أن يكون كل مخاوفك أن يرسب، أن ينقص، أن يأخذوا كذا، أن لا يأخذوا علي قرضاً، أن يمنعوا عني كذا أن يطلبوني بكذا...

ولا ذكرى للدار الآخرة ولا للرجبات الحقيقة والرجاء الحقيقي!

وعلى هذه المشاعر نحن نطلب أمجادنا، على هذه المشاعر نكتب ردود فعلنا تجاه الرغائب التي تأتينا، ما الذي نرغبه؟ ما الذي نرجوه؟ ما الذي تتمناه؟ مرور يومك وانظر كم مرة تمنيت أن يكون لك عند الله بيتاً! وكم مرة خفت من أعداء يكونون سبباً أن يزلق قدمك فتقع فيما لا يرضي الله!

امرأة فرعون نموذج للمرأة التي كتبت تاريخها من جهة رجائها وخوفها!

أصبح رجاؤها أن يكون لها بيت عند الله في الجنة، وأصبح الذي يخيفها هو أي شيء يبعدها عن دينها ويفتنها.

فراجع نفسك... انظر كل يوم تتحرك مشاعرك إلى أي شيء؟ ما الذي تحبه ما الذي تبغضه ما الذي تقبله ما الذي تتمناه ما الذي نرجوه فتكون تدور حول نفسك في الدنيا سينتهي الزمن وأنت لازلت على نفس المحاب والمباغض وعلى نفس الرجاء والخوف... وينتهي الاختبار

نسأل الله -عز وجل- أن لا نكون من أولئك القوم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾⁽¹⁾.

ننتقل إلى خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها-

سأشير إشارة سريعة إلى موقف واحد من مواقفها وهو موقفها مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حادثة الوحي.

في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَعَارٍ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ

(1) [سورة التوبة: 49]

فيه-وَهُوَ التَّعَبُّدُ-الْيَلْبَاسُ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَنْزَوُدُ لِدَلِكْ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيحَةٍ فَيَنْزَوُدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ-تَقْصِدُ بِهِ الْوَحْيَ جَبْرِيلُ-وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: ((مَا أَنَا بِقَارِيٍّ))، قَالَ: ((فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ })) فَرَجَعَ بِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يعني بالآية-يَرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى حَدِيحَةٍ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ-رضي الله عنها-، فَقَالَ: ((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))! فَرَمَلُوهُ

لننظر إلى هذا الأدب، لَمْ تَسْأَلْهُ (لماذا؟)، ولنرى حالنا عندما نتعامل مع أندادنا وأزواجنا، يقول: افعل، نقول: أول شيء لماذا؟ أريد أن أعرف السبب وأقتنع ثم أفعل! ويمكن ألا أقتنع فلا أفعل، فانظر إلى هذه الاستقلالية المقيتة الشعور أنه (أنا).

حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوَغُ، فَقَالَ لِحَدِيحَةٍ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: ((لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)) لننظر ماذا قالت! فَقَالَتْ حَدِيحَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا!

انظري للحكمة وللنظر البعيد والوقوف والمساندة والحمل على الخير، أثنت عليه بحق لا مجاملة وكذب ولا هضم وعدم رؤية للحق. والأمر المهم أيضًا أنها أثنت عليه في الوقت المناسب وعللت له أنه لا يمكن أن يخزيه الله، يعني على قاعدة (من كان وعاء للخير ملأ الله وعاءه).

"كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا" والسبب ما ترى فيه من كمال، فهي المرأة تنظر إلى كمال زوجها وتخبره به في الوقت المناسب بحيث أنه لا يدخل هذا الزوج إلى حال من اليأس والخوف والشعور بالهلاك لأنه قال لها: ((لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)) يعني خشيت أن أهلك، فهي تطمئنه أنك من أهل الخير، فلا يمكن أن يكون أحد من أهل الخير ويخزي.

أما العمى عن رؤية المحاسن في القوم الذين يحيطون بنا (نعاشرهم ويعاشروننا) نوع من الجحود والنكران والكفر، فلا تجد على ألسنة غالب النساء ولا تجد في ذاكرتهم إلا النقص! فلو قلنا: اذكري عشر من محاسن زوجك، ربما تذكر اثنين أو ثلاثة! ولو قلنا: اذكري عشرة من مساوئه! ستذكرها مباشرة! كلام مؤسف أن نظر عيننا على المساوئ.

مَنْ رَأَى الْخَيْرَ نَمَى لَهُ، وَمَنْ رَأَى الشَّرَّ ذَاقَهُ.

هذه المرأة العظيمة التي تملك حكمة تختار الكلام المناسب في الوقت المناسب وتقول الحق والصدق بأسلوب يوصل من يسمعها إلى الثقة بالله.

"كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا" هذا الشيء مهم جدًا في الموقف، لا تكلمه عن نفسها، تكلمه عن الله، كأنها تقول: هذه سنة الله، كأنها تقول: نحن نعرف الله ونعرف أفعاله، فترغبه في ربه، وتثني على الله، وتعينه على أن يحسن الظن بالله.

فالمرأة ذات الحكمة هي التي تنفعل مع المواقف كما ينبغي، فإذا رأت انفعالاً ورأت خوفًا ورأت ضجرًا...طمأنت بالله، ورغبت بالله، وحسنت الظن بالله، ولفقت النظر إلى عطايا الله، وتكلمت عن أيام الله، وتكون النتيجة أن يخرج هذا الرجل من أزمته واثقًا بالله، راغبًا بما عند الله.

فهذه هي المحبة الحقيقية، أن تحب أن يكون شريكك في الحياة حسن الظن بالله، مقبل على الله، واثقًا بالله، لا يضطرب عند الأحوال، وإن اضطرب كنت أنت تسكينه، وإن انفعل كنت أنت أمانه.

فكم نعيش انفعالات متعددة، فأين الكلام عن الله؟ وعن كمال صفاته؟ وعن الرجاء فيه؟!

"إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" تذكر له أفعاله راجية أن تكون هذه الأفعال سببًا لمعاملة الله-عز وجل-له بالنصرة والتأييد والعطاء، فترغبه فيما عند الله، وتلفته إلى أن الله قريب مجيب لا يخزي عباده، وأن فيك من الخير ما يدل على أن الرب-سبحانه وتعالى-يقربك ويعطيك.

من كان وعاءً للخير، ملأ الله وعاءه.

المقصد أن أمانا خديجة-رضي الله عنها-كانت نعم السند لبنينا-صلَّى الله عليه وسلَّم-، فهي جديرة بالحب، جديرة بالشعور تجاهها بالفخر، جديرة أن تكون نموذجًا، رأينا كيف عاملت النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-في إذهاب الروع عنه، في تسكين فؤاده، في جعله منشراح الصدر تجاه ما وقع عليه، جعلته بكلامها-رضي الله عنها-ذا ثقة قوية بالله-عز وجل-، فهذا كله دورنا في الأزمات.

فإن من حولنا يمرون باضطرابات، وقد يدخلون في حالة من اليأس أو الخوف، فالمرأة الحكيمة التي تصنع لنفسها تاريخًا وقتما تنفعل مع الأحداث عليها أن لا يذهب عقلها، بل تكون راشدة ترشده في هذه الأزمة إلى التعلق بالله، تثني على الله، تبين كمال رحمته وحكمته، وتبين أنه العبد الذي يفتقر ويعبد ويرجو لا يخذله الله ولا يخزيه.

المرأة صاحبة المجد تمتص الانفعالات بالتذكير بالله، لا تنفعل مع الانفعالات فتذهب بأصحاب القرارات بعيدا! ويكون خائفاً فتزيده خوفاً، ويكون يائساً فتزيده يأساً فتذكره بما يزيده خوفاً!

هي لم تكلمه عن نفسه-صلى الله عليه وسلم-، أول شيء قالت له: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْرِيكَ اللَّهُ أَبَدًا" ثقة بالله إيماناً به، ثم أظهرت له محاسنه التي ترجو معها أن يعامله الله بكرمه، وأن هذه سنة الله.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَدِيثُهُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ حَدِيثُهُ: انظروا للرعاية والإرشاد، انطلقت به أخذته وأرشدته إلى من يعينه ويساعده.

"وَكَانَ امْرَأَةً تَنْصَرُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُتُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ" هو تنصر لأنه كان لا يتقبل دين العرب عبادة الأصنام، كان يبحث عن الله في السماء.

فَيَكْتُتُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُتُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ حَدِيثُهُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ: هي التي تقدمت بالكلام.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَوْ مُخْرِجِي هُمْ))، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤَيِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ.

المقصد أنها اختارت من يشير عليه بكل أمانة وليس من يشير عليه رأيًا يوافق هواها.

هذه المرأة العظيمة أmana التي نجبها ونرى أنها تربطنا ببيت النبوة، ونرى آثار حكمتها في موقف عظيم رهيب، ونرى آثار اعتمادها على الله ومعرفتها به في قولها لأن هذا كان قبل الاسلام.

ختامًا... الأمر يحتاج إلى تقليب إلى أكثر من ذلك، لكن إن شاء الله ما سمعتموه فيه إضاءه وخير...

أسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا على خطا هؤلاء العظميات، وأن يجعلنا ممن يقلب التاريخ فينفعنا به اللهم آمين.